

لا مفر

منه السور على صفحة ١٦

هؤلاء، ليكونوا علينا من الشاهدين»

وأخذت شحاتة ربكة أول الأمر ثم قال

« وفيهم المجلة ؟ الأفضل أن ينتظر قليلا »

فقال الحاج عثمان « كن صريحا وتكلم

أمام هؤلاء الرجال . لقد كنت أشد مني

رغبة في أن ترف عيمة إلى شبل فإذا جرى

بعد ذلك ؟ »

فقال شحاتة « أتريد الحق ؟ البنت

مجنونة هذه الأيام وأخوها محمد أجن منها

والأفضل أن تأخذها بالخيالة والسياسة »

وضحك شحاتة في صوت مسموع كأنما

يريد أن يخفف وقع كلامه على صاحب الدار

فقال الحاج عثمان « ماذا تقول يا رجل ؟

لم يبق إلا أن البنت تفرض إرادتها على

أبيها .. ومحمد ما شأنه ؟ هل هو أبوها ؟

أنا لا أرضى لك بهذا ... إما أن تكون

أنت الرجل وإلا ... »

فأجاب شحاتة : ماذا أصنع يا إخواني ؟

سألت الواعظ فقال إن الشرع لا يسمح بأن

تزوج البنت رغم أنفها ، ومن زوجت بهذه

الصورة فزواجها باطل فهل تتبع ...

وقاطعه الحاج عثمان قائلا : الله ... الله ...

متى أصبحت رجل شرع ... وهل يسمح

الشرع للبنت بأن تختار من تريد ؟ ما هذا

الكلام ؟ والله لو أن عندي بنتا تفعل هذا

لدفنتها حية ... ألا تخشى الفضيحة يا رجل ؟

وضحك شحاتة ضحكات متتابعة فضا

به صاحب الدار وقال له : إما أن تصرح بما

في ضميرك وإلا فلنقل هذا الباب

فقال شحاتة : انتظر حتى يعود الأستاذ

على أخو العمدة وبعد ذلك نتكلم .

فأجاب رب الدار في غضب : وما دخل

الأستاذ في هذا ؟ ثم تدارك كلامه قائلا :

أقصد أنه لا يمنعك من أن تزوج ابنتك إن

تشاء ، وهم على كل حال هو وأسرته رؤساؤنا

وكبرائنا من قديم ... ولكني لا أرى لهم

دخلا في أمر كهذا .

وكان النسوة يسترقن السمع خارج المنظر

وقالت أم شبل لزوجة ابنها حسن دون أن

تعبأ بوجود ابن أخيها : وهل يستطيع شحاتة

أن يبت في هذا ؟ الكلمة في داره كلمة أختي

وخير للحاج ألا يتعب نفسه . والله لولا

أنها بنت أختي ما قبلتها لابني .

وكانما ألهم زوجها ما تقول ، فقد سررت

الحديث عن وجهه ، ثم انقربا عقد المجلس .

وأخذ الرجال يحدث بعضهم بعضا في مختلف

الشؤون حتى قربت الشمس من المغرب

فأخذوا ينصرفون . وكان شحاتة أول من

تسلل من النظرة .

عاد على من سفره فافتقد صابرا بضعة أيام ثم سأل عنه فسمع لإجابات مختلفة ، فمن فائل إنه سافر ليعمل في عمارة تبني في مدينة قريبة وسيمود بعد أيام ، ومن فائل إنه عبر إلى الشط الغربي ليعمل في البحيرة فقد ضاق بالعيش في قريته لأن أباه يأخذ ماله فينفقه في القهوة على جلسائه ، وهو يريد أن يتصدق مهره مما يكسب . ولقد دهش على مما سمع ولكن دهشته لم تطل . فقد مر به محمد شحاته فقال له إن الرض قد اشتد على صابر بعد أن شفى ماله ، وأمه لا تحب أن يراه أجدحتي ببرأ مخافة أن يشمت به شبل وأهله ، ولذلك فهي تحب من يسأل عنه أنه سافر في عمل مع البنائين وسيمود بعد أيام

وشخص على بين المغرب والعشاء وحده إلى دار صابر ، فألقى فتحية وحدها على مقربة من الباب وقد وضعت رأسها بين رجليها في صورة جزينة راد معنى الحزن فيها ضعفين عناء لدايتها وضحكهن على مقربة منها

وطرقت فتحية الباب ونادت أمها ففتحت لها ، فقامت الصبية وهي تدفع الباب « اتفضل يا سيدي » . فقال على « يا صابر .. مساء الخير يا حاجة » وأخذت حسونة ربكة أول الأمر ثم قالت « مساك الله بكل

خير يا سيدي ... أهلا وسهلا » وتناولت يده وانحنت لثلمها فغذبتها في رفق وعيناه على صابر ، وقد تمدد على المصطبة ونور المعلقة في الكوة فوق رأسه ، وكان صابر راقدا على ظهره ووجهه إلى أعلى ولم يستطع أن يلتفت فدنا على منسه وقال وهو يتكلم الالباسم « لا بأس عليك يا صابر .. ما بك ؟ » ورد صابر في صوت خافت قائلا « لا أراك الله ما أنا فيه يا سيدي ... أشكرك ... حتى كان فيه صابرا »

وجلس على على حافة المصطبة عند فئس صابر ، فإذا هو حيال منظر كم تنى لولم يره ولكم حاول جاهدا أن يمسك دمه وأر يتكلم دون أن يتهدج صوته . أهذا هو صابر الذي كان مضرب المثل في قوة البدن ونضرة الوجه ؟ إنه يرى يديه من تحت المطاء تحيلتين معروقتين كأنهما يدا شيخ ! ويرى وجهه الذي كان يترقق فيه ماء الشمام وقد غدا مسنونا مصفرا كأنما غفره الموت بترابه . ثم إنه يرى في أساور هذا الوجه الذي يقع عليه نور المعلقة ما لم ير مثله قط لا في حقيقة ولا في خيال من صورة الأنم البشرية ، ويستمتع إلى أنات صابر وهو يكتمها بجسدا وإشفاقا على أمه فبهمة قلبه اهترأزا

وقال على وهو يهش نصاير متكلفا

« لا تخف يا صابر كن جدعا » فقال صابر
في همس « لست خائفا . سيربحني الموت
لا يذل الإنسان إلا المرض »

ونبتت فتحة عليا إلى خارج الدار فناداها
ووضع بعض القروش في يدها الصغيرة
فقالت في غير مناسبة « بعنا المعجاة ياسيدى ..
عجلة صابر أخى فإن أبى عليه وإيجار لم
يسدده .. ولم يكن عندنا ذرة ولا فلوس
للحكيم والدواء من يوم أن مرض صابر
واقطع عن العمل .. وكان صابر يربى
المعجاة ليدفع ثمنها مهرا انميصة فهو يحبها
ياسيدى وهى تحبه .. ولما سجننا المعجاة
إلى السوق لم يقضب صابر أبدا . ربي
يشفيه ياسيدى ! من لنا غيره ؟ »

اتفق أن التقى على في هذه الليلة
بالطبيب فلم منه أن مرض صابر حصاة في
الكلى وخير علاج له أن تجرى له جراحة ،
فاعتزم على أن يرسله في عده إلى المستشفى
في عاصمة الإقليم . وقضى على ليلته مكتئبا
يسأل نفسه كم في القرية من أمثال صابر
ممن يعيشون على عملهم يوما فيوما ، فإذا
أُبعدهم المرض عن العمل لم يجدوا مايا كالون !
وطاف بخياطه قول صابر لا يذل المرء
شئ مثل المرض . وهزت نفسه من أعماقها
دمعة اللتان أهدرتا وهو يدس له النقود
تحت المدة ولم يغب عنه ما وقع عند ذلك في

كن رجلا كهمدى بك يا صابر .. كل
إنسان يمرض وبشئ .. فهم صابر كى
لا تسمع أمه قائلا « لا .. لا مفر
من الموت هذه المرة » وقالت حسونة
« منهم لله .. يا رب أنت حسبي على الذين
يعملوا هذا بولدى .. أنا مسكينة يا رب
وأنت عالم بى .. يا رب أنت حسبي » ثم
كتمت نسيجها إشفافا على ابنها ومسحت
دموعها بكفها

قال على « أرى هنا دواء في راحة على
الرف فهل رآه الطبيب ؟ وماذا قال ؟ »
فقالت أم صابر « ذهب ابني إلى الطبيب
ممل أن يشتد المرض فأعطاه هذا الدواء ولم
يقبل شيئا »

فقال على « إن شاء الله يشفى ..
لا تخلفي يا حاجة »

فالت حسونة « ربنا موجود ياسيدى ..
.. يفيك ولا يسيئنا فيك »

وعاقل على المرأة وأخرج من جيبه
بعض أوراق النقد فدهسها تحت غدة صابر ؛
.. بلر فإذا بصابر يفر رقرة خفيفة ثم تنحدر
.. مسنات على حذيه .. وعمهم صابر ببعض
ثمالت السكر .. وبعض الأستاذ ليخرج
فقال « سأقابل الطبيب وإن شاء الله ماهناك
إلا الخير » وأمسك بيد صابر مسلما وهو
لا ينوى على النظر ثانية في وجهه ، وقال

من خلق الرجال . وإنه ليس له أن يفرح فإنها علمت من أخته فتحمية أنه شفى بعد أن نجحت الجراحة وأنه عما قريب سيمود إلى القرية

قالت زينب : فسألها شبل وماذا يأكل في داره حين يعود ؟ فقالت نعيمة : إنه رجل وإنه يأكل من عرق جبينه ولا يعتمد على مال أبيه

فقال شبل : ويحمل الطوب والفحم . فأجابته نعيمة : وأى عار في ذلك ؟ ألم يكن أبوك يعمل أجيرا في شبابه قبل أن يشتري ما يملك من أرض ؟ فثار شبل وسمت خذله نوره فأظهرها على ما قالت نعيمة فأهوت عليها ضربا مصا أخذتهما من يد شبل ، ولكن نعيمة التزعت العصا من يدها وحاولت أن تكسرها على ركبتيها وأجهت إلى شبل قائلة : قل ما تشاء فليس يهمني ما أقول . وماذا أقار ما كتبته أمك ؟ ثم استدارت وقالت لأُمها : والله لو قتلتموني ما أرجع عن رأيي . ألم تزوجني أنت أبي على الرغم من أهلك كما أخبرني الناس ؟ ثم ألم تهدي أهلك بأهلك تحرقين نفسك إذا منعوك عنه ؟

قالت زينب : فاستخذت أمها واستخذى شبل . وحضر أخو نعيمة فكاد أن يضرب شبل لولا أن جاء أبوه شحاته فنهده وأخرجه من الدار واعتذر لشبل عما فعل ابنه

نفس الفتى من معنى أبكاه . وحين أوى إلى فراشه تذكر وحصة السكى في خاطره أنه رأى صابرا منذ سنتين في الحقل وقد جلس على حافة قناة كأنما يقمى ووضع فيه في قليل من الماء في قاع القناة كان نصفه طينا فشرب منه ومحب يومذاك كيف يفعل ذلك ولا يصيبه الضرر * * *

فقدت دار شحاته الطولى ما عرفت به بين الدور من مرح أهلها ورضائهم عن حياتهم . وأحس أهل الحارة بالكآبة تنفث هذه الدار ، فالرجل دائم الخلاف مع امرأته ، وامراته عابسة مبهومة أبدا ، وابنها لا يكاد يكلمها أو ينظر إليها ، ونعيمة التي كانت بهجة الحارة والتي كانت لا تدخل دارا إلا ملائها مرحالا ترى اليوم إلا صامتة مخزونة . ولكن الناس لا يحارون في تعليل ذلك فهم يعرفون أن الرجل لا يريد أن يكره ابنته على الزواج من شبل عملا برأى الواعظ . والمرأة يؤلمها ويشير عنادها أن ترى الرجل يخالفها بعد موافقة وهو لم يكن يرد لها طلبا مهما كان . وكثيرا ما يشتد الجدل بين الرجل وزوجته حتى يوشك ذلك الجدل أن يستحيل إلى معركة وتحدثت زينب بلبت صالحة مع بعض النسوة فقالت : إن نعيمة ثارت في وجه شبل وعنفته منذ أيام في دارها حين ذكر صابرا أمامها بالسوء . وقالت له إن الشامة ليست

وجهمها وخضرة عينيها وصفرة شمرها
فسألها عن اسمها فجرت ضاحكة وانددت
بين أنسابها ولم تجب .

وتادأها هذه الليلة وقد رأى اللمفة في
نظراتها ودد إليها يده مسلما فالت عليها ولتمتها .
وأحس أنها تريد أن تسأله عن صابر ، ولكن
الحياء يمنعها فقال لها ضاحكا : احزري من
أن لنا قادم . فابتسمت ولم تتكلم وارتسم على
وجهها شيء من الالطمان ، فقال : إنه محير
وعما قريب تجدينه في البلدة . وتخرج
وجهها الجبل وتألفت بالغبطة والشكر عيناها
وأدارت وجهها عنه في حياء تحاول أن تخفي
سرورها . ولما مد إليها يده مودعا لثمتها
مرتين في حماسة تمسره بذلك عن عظم
شكرها بإياه

لم يكن يعلم أحد في القرية متى يسود
صابر من المستشفى ، وإن كان صحابته وأهل
يعادون أنه تأمل للشقاء . ومضت أيام بعد
شفائه ولم يعد . ثم ما لبث أصحابه أن
أصبحوا يشفقون عليه من العودة وبشتون
لو امتد أجل بقائه في المستشفى .

وأزلت سيارة عامة صابرا ذات
على الطريق الزراعي في منخل القرية ، وسار
نحو داره من طريق ضيق قلما يسلكه من
قبل ، هو أقرب الطرق إليها . وراء بعض

وشاع حديث ربيب في القرية ، وأخذ
أصحاب صابر يرتقبون عودته فقد آلمتهم شماته
سبل كما آلمهم حزن نعيمة وشقاؤها وقال من
زارود منهم إنه بخير وإنهم فرحوا حين رأوه
فقد أخذت تعود إليه عافيته . وقد أوصى
الأستاذ على به الأطباء وزاره أكثر من
مرة فاهتم به كل من في المستشفى

تمرت نعيمة ولم تعد المدعى لأنها بقيت
في الدار لا تخرج ، وشكتها أمها إلى أبيها
فأدار لها ظهره قائلا : ومن تخافين على ابنتك
وصابر في المستشفى لا يعلم إلا الله متى يعود ؟
وبرى الناس نعيمة صامنة ، تنسجم الأنباء
عن صابر ولا تتكلم ، ولا تجرؤ الفتيات أن
يعاتبنها اليوم وامهين يرتين لها

وكانت عائدة من دار ربيب ذات ليلة بعد
المغرب مهمومة بدور طرحتها برأسها ووجهها
في صورة حزينة فصادفها على وقد نزل من
سيارته على الطريق الزراعي ، فأحست أنه
قادم من زيارة صابر ، فنظرت إليه في لهفة .
وكان على يعرفها منذ صغرها وكثيرا ما كان
يداعبها ، ولم يزل يستوقفها ويضاحكها كلما
رآها حتى أصبحت فتاة ناهدا . وإنه ليذكر
يوم أن رآها أول مرة وهي في الماشرة
أو دونها قليلا فاستوقفها وكانت مع عدد
من البنات وقد استرعت بصره بنهن بحمال

يا صابر وزفافها الليلة بعد العشاء » فأسند صابر ظهره إلى الحائط وقد جف ريقه وارتعدت بداه . ومضت أخته تقول وهو ينظر إليها صامتا هادئا « وكانت تبكي ليلة الحناء وتلطم وسط النساء والبنات بيديها قبل أن يحنوها ، وكانت أمها تشتمها ونعميمة تقول يا خبيثي يا سوء حظي .. ماذا صنعت يارب ؟ وبكت بعض البنات والنساء . لبكائها . وسمعت من زينب أن أباها لطمها على وجهها حين رفضت أن توكله للعقد وقال لها ستفدحيني في البلدة والله أذبحك وأدفنك الليلة . فلم ترد وظلت تبكي فقال له الحاج عثمان زوج خالتها تعال إلى الأذنون فهي مواطنة ونحن شاهدون .. وقالت زينب أيضا إنها ظلت تبكي طول النهار . ودأبها أنا بنفسى العصر وحولها بعض أقاربها قتالت لأخيها محمد وبعض أصدقائه أليس فيكم رجل ؟ خذوني إلى جهنم .. يارب أريد أن أموت .. ماذا جنيت يارب ؟ ثم لطمت وجهها ودعت على أبيها بأن لا تطلع عليه الشمس .. » ثم أجهشت فتحية وقالت « وسمعت بأدنى سلمتها زوجة حسن تقول لها « أتبكين لأنك ذاهبة إلى دار خالتك دار العز بدل دار الفقر ؟ وماذا كنت تجدين حول صابر وأهل صابر إلا الجرع والشقاء والعمل مع البنائين ؟ »

الناس قبل أن يقرب من داره ، فكانوا يسلمون عليه مظلمين فرحهم لشفائه ولكنه كان يلمح في وجوههم ما يشبه الرثاء له ، كما يخفون عنه مالا يحبون أن يفاجئوه به ، ورأى ذلك جليا في بعض الوجوه فقد كان يرسم عليها في وقت واحد السرور لشفائه وذلك الرثاء الصامت الحزين الذي ينفذ إلى قلبه فيختلج بين أضلاعه ، حتى لقد اتجى بأحدهم ناحية وسأله قائلا « هل ماتت أمي فأني قدرت أنها ستتموت وأنا في المستشفى » ولكن صاحبه أكد له أن أمه وأباه وأخته بخير

ودخل صابر داره ، فلم يجد إلا فتحية ، فأقبلت عليه مساة ، وأسرت فأوقدت السرجة في الكوة ، فرأى في وجهها رثاء وحزنا كانا فيه أبلغ مما رآه منهما في وجوه الناس ، فدق قلبه وسألها عن أمه فقالت إنها في إحدى الدور القريبة وإنها ذاهبة لتدعوها ... فسألها أخوها ماذا تعمل أمه في تلك الدار ، فبدأ الخزي على وجهها وقالت بعد تردد « تقترض بعض المال لشترى ذرة »

ثم جلست بجانبه على المسطبة تنظر في وجهه وقد ابيض وانضح لون المسفورين الزرقاوين في عارضيه ، ثم قالت في سداجة لا تخالو من ألم وغيط « نعميه تزوجت

إن كانت محب أن ترضيني »

سمع الناس الزغاريد بعد العشاء ينبعث
من ناحية دار الحاج عثمان . ولكنهم مالبثوا
أن سمعوا صباح امرأة ينبعث من ناحية
أخرى متتابعا متقطعا وتبينوا فيه حرقه
الحزن وسندة الجرع . وتسال الناس ، فقال
بعضهم إنها أم صابر كما أخبرتهم بمصر
النسوة فراح يؤكد هؤلاء أن ابنها مات في
المستشفى . وقال البعض إنه جاء الليلة وإبهم
رأوه بأعينهم فلمله مات في الدار . ووقف
القوم حيرى حتى جاء رجل من ناحية تلك
الدار فأخبرهم — وهو يكرر قوله : لا حول ولا
قوة إلا بالله — بأن صابرا قتل في المحطة وقد
شاخ أن سالما هو الذي قتله

وما هي إلا لحظات حتى أسرع كثير من
الشباب والرجال والنسوة صوب المحطة .
وقد سبقتهم إلى هناك حسونة أم صابر
صائحة مولولة ومعها بنتها فتحية تسكي
وتصرخ ، بينما كان أبوه لا يزال في القهوة
لا يعلم شيئا

ووقف الجميع منصتين متراحين حول
خفير « المزلتان » وهو يحدث الأستاذ علما
وكانت تسمع بعض الأماط الخفير في صرخات
حسونة وقد أحاط بها بعض النسوة
وأمكن بذراعيها إشفافا على وجهها من

فربت صابر على كتف أخته يكفكف
دموعها وقال لها في صوت خافت « إذهبي
فأخبري أمك بمجيئي » وما كادت تبتعد
أخته عن الدار حتى خرج هائئا على وجهه
لا يدرى إلى أين يتجه ولا أين يبيت ليلته ،
فما يطيق أن يبيت في البلدة ، وكان يقف
كلما مشى يضع خطوات يريد أن يرجع
إلى أمه ، فإذا عساها تصنع حين تأتي
ولا تجده في الدار ؟ ولكنه كان يعود فيمضي
سريعا وما زال مسترددا بين الضى
والعودة حتى اقترب من محطة السكة الحديد
فقابلته إحدى الفتيات فمرقته في الظلام
وسلمت عليه هاشة فرحة بشافته ، ولكنها
ارتجعت لما تراه في وجهه من ذهول
واضطراب ، فأدركت ما به . وسألته إلى
أين يذهب فقال « سأعبر النيل إلى البحيرة
لأعمل هناك » فقالت له « بعد أن تسترد
عافيتك ، وهل تقوى على العمل إلا بعد أيام ؟
أمن أجل بنية كهذه تهجر البلدة ؟
العرائس كثيرات يا صابر وأنت ظفرك
تألف .. تعال .. تعال ارجع معي » ومدت
يدها تمسك كفه فدفعها في رفق وانقسم في
هدوء كأنه لا يحس شيئا من ألم أو يأس
وهمس بقوله « قولى لأى إلى عائد قريباً
و .. وقولى لنعيمة تعيش في ههنا مع زوجها

الاشماتة في الجسد المرهيبه كان الله لأمي
وصفر القطار واقرب فمارأني إلا صار
يلقي بنفسه تحت عجلاته . ودق الخفير كذا
بكف يمهز عن دهشته ، وأجهش أكنه
الفتية والرجال ، ونظر من كان منهم قرب
القضبان إلى عطاء يغطي جثة صار وقد
وضع قربها فانوس ووقف حولها موظف
المحطة والحزن في وجوههم . وبات بعض
أصحاب صار إلى جانبه ... إلى جانب حخته
حتى يسمح بنقلها . وعاد الآخرون إلى
القرية واجمين دامعين ، فلما مروا بدار الحاج
عمار لم ينالكوا أنفسهم فخطموا المصباح
القوى المعلق بيأسها وعفروها بالتراب
محجور الخفيف

اللطمات وهي تقول ولدي . ولدي . في
مرة تقطع أغلظ القلوب ، ودموعها تغرق
حديها الدالين

قال الخفير : لقد كان مي صار يحداثي
وكان هادئاً مبتسماً ، وقد رثيت له حين علمت
أنه عاد الليلة من المستشفى وحين فطنت إلى
أنه لم يطق أن يبيت في القرية ، ورحت
أعوز له الأمر فنظر إلى لحظة وقال يخوي
عني ما فطنت إليه من سبب لهجرانه بالبلدة
مابقائي بالبلدة وإن أستطيع العمل لا أكسب
فوني قبل شهر على الأقل كما قال الطبيب ؟
وماذا أصنع يا أحي ؟ هل أنسول وأما الذي
ما أخذت قرشا إلا يعمق جيبني ؟ ثم تشهد
مهدة طويلة وزم شفتيه كأنما اغترم أمرا
وأوما برأسه مرات وعاد يقول : ما أوجع

رواية شاب هادي



حل اللز الذي نشر في العدد الثالث من الرواية تحت هذا العنوان
لقد ذكر مساعد انصراف أنه أطفأ النور حين سمع أقداما
على السلم في أسفل البناء ، فكيف استطاع إذن أن يرى في الظلام
رقم النليفون حين استدعى البوليس ؟ هذا دليل على اختراع
القصة كلها . ولذلك أقول المأثور أنه هو السارق